الفارس الجميل

بقلم : على أحمد باكثير

●● وارتحل مصعب بزوجتيه الى الكوفة ثم لحق به الأحنف بعد ذلك . وكان فى نية مصعب أن يعجل بالسفر الى مكة للقاء أخيه وعرض الأمور عليه ، لولا ان واجهته أول ما قدم الكوفة ، مشكلة أصحاب المختار . فانهم لما سمعوا بمقتل صاحبهم ضاق بهم الأمر ولم يجدوا لهم مامنـــا الا أن يتوافـدوا الى الـكوفة ليستسلموا لمصعب وينضموا اليه عسى أن يقبلهم ليقاتلوا معـــه عبـــد الملك ابن مروان .

قالوا لمصعب : لا تقتلنـــا واجعلنا فى مقدمة جيشك لقتال عبد الملك فان ظفرنا فلكم وان قتلنا لا نقتل حتى نقتل منهم طائفة وكان الذى تريد .

فرق لهم وكاد يجيبهم الى ما طلبوا لولا ان جماعة من كبار أصحابه يتزعمهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث أبوا ذلك وقالوا : هـؤلاء قـد قتلوا أولادنا وعشائرنا وجرحوا منـــا خلقاً فاخترنا أو اخترهم . فحار مصعب ماذا يفعل . وأشار عليه الأحنف بن قيس ألا يصغى الى هؤلاء ، وأن يقبل التائبين من أصحاب المختـــار فانهم يكرهون آل مروان ويتحرقون لقتالهم وسيكونون قوة له.

قال مصعب : لكن أصحابى سيتخلون عنى اذا فعلت .

واشتد الحاح أصحابه عليه فى وجوب قتل أصحاب المختار حتى ضاق بهم صدره فقال لهم : افعلوا ما بدالكم .

وخشى هؤلاء أن يرجع مصعب فى قوله فانطلقوا فى الحال فذبحوا من أصحاب المختار ثلاثة آلاف رجل فى يوم واحد . وكانت مذبحة اشمأز لها مصعب لما بلغته . واخذ يلوم أصحابه ويعنفهم ولكن بعد فوات الأوان .

وطفق الأحنف يلومه ويقول له : انك بما فعلت قد أفسدت أصحابك هؤلاء عليك ، وشجعتهم على مخالفتك ، والاستقلال برأيهم دونك . ان هؤلاء أهل العراق لا يصلحون الا بالشدة والحزم ويفسدهم اللين والمراعاة .

فاسترجع مصعب وقال : دعنى من لومك الآن يا أبا بحر . فقد نفذ المقدور ولا سبيل الى رد ما وقع .

ولم يكد مصعب يفيق من هول هذه الحادثة حتى واجهته مشكلة أخرى ، حينما جيء اليه بزوجتى المختار بن أبى عبيد « أم ثابت بنت سمرة بن جندب ، وعمرة بنت النعمان بن بشير » فقيل له: يجب أن تستتيبهما فان تابتا واعلنتا البراءة منه أطلقتهما والا قضيت عليهما بالقتل .

فسأل مصعب الأولى عن رأيها فى المختار فقالت : ماذا تقول فيه انت أيها الأمير ؟ .

ـ أقول أنه كافر ملحد .

ـ قالت : فانى أقول فيه بقولك انت .

فاطلق سراحها .

ثم سأل الثانية عنه فقالت : يرحمه الله . لقد كان عبدا لله صالحا .

ـ ويلك أما تعلمين أنه كافر ؟ .

ـ أصلحك الله أيها الأمير والله لو علمت أنه كافر ما أقمت عنده يوما واحدا .

ـ يا هذه ألا قلت كما قالت ضرتك فيه فاطلق سراحك ؟ .

ـ أيها الأمير لعلها قالت لك ذلك فيه طمعا منها ان تتزوجها انت ؟ .

ـ فضحك مصعب وقال لها مداعبا :

ـ وانت اليس لك فى ذلك ؟ .

ـ لا والله لا أتزوج قاتل زوجى أبدا .

فحار مصعب فى أمرها . وأراد أن يكتب الى أخيه عبد الله ليستفتيه فيه ولكن أصحابه ثاروا عليه وقالوا له : يجب قتلها اسوة بأصحاب المختار الآخرين .

قال لهم : انها امرأة وفية لزوجها . ولا ينبغى لها أن تقول فيه غير ما قالت .

قالوا له : لعلك أعجبك جمالها فاردت أن تستبقيها فانك ـ ما علمنا ـ زئر نساء .

فنهرهم غاضبا وقال لهم : قبحكم الله من قوم سوء .. ويلكم أترون جديرا بى أن أقتل النساء ؟ . اغربوا عن وجهى .

فانفضوا من عنده وهم يقولون : والله لنكتبن الى أخيك أمير المؤمنين فى شانها .

فسأل مصعب عمرة عن أهلها فقالت

له : انهم بالحيرة فأمر بأن تحمل الى اهلها هناك ريثما يأتيه جواب أخيه عبد الله فى أمرها فينفذه .

ولكن الشرطة الذين انتدبهم لمرافقتها قتلوها فى الطريق بين الكوفة والحيرة . فلما بلغ مصعبا ذلك ثار وغضب وتوعد القتلة بالعقاب ، لولا أن جاء جواب من عبد الله بن الزبير يأمره بقتلها اذا أصرت على رفضها أن تتبرأ من زوجها الكافر . فما كان من مصعب الا أن سكت عنهم .

بيد أن الأثر الذى تركته هذه الحادثة فى مصعب كان عميقا جدا فلم يستطع أن يطرد من ذهنه خيال عمرة وهى مضرجة بدمائها فى الأرض القفر ولا من سمعه صدى أبيات ابن أبى ربيعة التى سارت بها الركبان وانتشرت فى كل مكان .

ان من اكبر الكبائر عندى
قتل حسناء حرة عطبول
قتلت باطلا على غير ذنب
ان لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا
وعلى الغانيات جر الذيول

* * *

وضاق مصعب بمقامه فى الكوفة وأراد أن يرتحل الى أخيه لعله يجد فى الرحلة فرجا من الكرب الذى هو فيه . ولكنه ينتظر قدوم ابراهيم بن الاشتر الذى كتب اليه بأنه قادم ، ولم تطوع له نفسه مغادرة الكوفة قبل أن يقدم ابراهيم فيعهد اليه بمراقبة شئون الحكم فى أيام غيبته بالحجاز ، آذ كان لا يثق بأحد ثقته بابراهيم . وكان مصعب معجبا بابراهيم بن الاشتر منذ كان ابن الأشتر خصما له يقاتله مع عدوه المختار بن أبى عبيد كما كان ابن الأشتر معجبا بمصعب كذلك ، يكبر أحدهما الآخر لشهامته وفروسيته .

وكان ابن الأشتر متحمسا للمختار لما أظهره من التشيع لآل البيت والمطالبة بدمائهم واعادة الحقوق اليهم ودعوته فى ذلك الى محمد بن الحنفية . وظل كذلك الى أن تبين له كذب المختار فيما ادعى من كتاب محمد بن الحنفية اليه ، ذلك الكتاب الذى زوره المختار عليه فتبرأ منه حينئذ وتخلى عنه .

وكانت الحرب سجالا بين المختار ومصعب فما راع مصعبا ذات يوم الا ابن الأشتر يقبل عليه وحده والسيف مشهور فى يده فحاول رجال مصعب أن يمنعوه فقال لهم مصعب دعوه فلما دنا منه أغمد سيفه فتعانقا عناقا حارا جعل القوم يتعجبون له اشد العجب ثم اختليا فى مجلس وتطارحا الحديث كأنهما صديقان حميمان .

قال ابن الأشتر :

ـ والله يا مصعب لو أردت قتلك لحاولت ذلك ولربما نجحت فيه ، ولكن نفسى لم تطاوعنى على أن أقتل رجلا مثلك جمع الله له جمال الخلق وكمال الخلق . والله يا مصعب انى لأحبك وأعجب بك وأرى أن الدنيا سيقبح وجه الحياة فيها اذا خلت من وجهك .

واجابه مصعب قائلا : وانا والله احبك

وأقدرك يا ابراهيم ولقد حاولت جهدى ان القاك لأقتلك فاكون قتلت اشجع فارس فى العرب ولكنى لم أسلط عليك . والله ما يعدل رغبتى فى قتلك الا سرورى بنجاتك لعلك تنقلب خليلا لى فنقاتل معى هـــذا المنافق عدو الله المختار بن ابى عبيد .

قال ابن الأشتر :

ـ ان ذلك ليسرنى يا مصعب ولقد تبينت كذب المختار ونفاقه ، فتبرأت الى الله منه ، ولكن مروءتى تمنعنى ان اقاتله معك اليوم وقد قاتلتك معـــه أمس فامهلنى يا مصعب حتى تفرغ انت منه وحينئذ فادعنى فستجدنى ورجالى طوع أمرك .

ـ أين تمضى يا ابراهيم ؟ .

ـ سأمضى أنا ورجالى الى جهـــة الموصـــل حيث كنت عاملا للمختـــار هناك .

فقبل مصعب منه ذلك وركب معـــه يودعه بنفسه حتى أوصله الى مأمنه .

فلما اعتزم اليوم مصعب ان يسير الى الحجـاز الح فى طلب ابن الأشتر فكتب اليه يستقدمه ويستنجزه وعده فلبى ابن الأشتر دعوته وقدم اليه مع رجالـــه بالكوفة فسر بهم مصعب واكرمهم وجعل ابن الأشتر على الوفادة واعتمد عليه فى مراقبة شـــئون الحكم أثناء غيبته بالحجاز .

وانكر أصـــحاب مصعب عليه ذلك ونصـــــحوه الا يطمئن الى ابراهيم ابن الأشتر فقال لهم : ويحـــكم انكم لا تستطيعون أن تعرفوه مثلى . والله انى لأثق بابراهيم أكثر من النـــاس جميعـــا . ان عبـــد الملك بن مروان قد كتب اليه بالموصل يستقدمه اليـــه ليوليه الولايات فرفض دعوة عبد الملك وآثرنى عليه .

* * *

وغادر مصعب الكوفة فى وفـــد من وجوه أهل العراق حتى قدم على أخيه عبد الله بمكة . وكان أول ما فاتحه به عبد الله أن لامـــه فى تقريبه لابراهيم ابن الأشتر وذكره بأن أباه مالكا الأشتر هو الذى جرحه فى وقعة الجمل حيث

برك الاشتر على عبد الله فجعل يصيح صيحته المشهورة .

اقتلونى ومالـــكا

واقتلوا مالكا معى

فاجابه مصعب بان ذلك أمر قد مضى ولا شان لابراهيم بما كان من أبيه .

فلما أكثر عبد الله عليه فى ذلك غضب مصـــعب وقال : انى اخترت ابراهيم ابن الأشتر على علم منى فاما أن تقرنى على عملى واما اعتزلت فول مكانى من شئت .

فعجب عبـــد الله من شدة مصعب فى هذا الأمر واعرض عنه ولم يعاود القول فيه . وكان مصعب يأمل من اخيه أن يكرم وفادة أصحابه الذين قدم بهم من العراق فقد كانوا من خيرتهم وسيكونون لسان صدق له حين يرجعون الى بلادهم ولكن عبـــد الله بن الزبير خيب أمله وآمالهم فيه فأحرج مصعبا أمامهم حتى قال لهم مصعب : لا يغضبنكم هذا من أخى فانه رجل متزمت متشدد لا يرى من حقه أن يرزأ بيت مال المسلمين من اجلكم ولكنى سانوب عنـــه فى تكرمتكم وعطاياكم حين نعود الى العراق .

ولم يكتف عبد الله بحرمانهم من العطاء حتى قال لهم لما اجتمعوا عنده : جئتنى يا مصعب بعبيـــد أهل العراق لأعطيهم من مال الله .. وددت والله أن لى بكل عشرة منهم رجلا من أهل الشام ، صرف الدينار بالدرهم ! .

فاجابه أحـــدهم وكان قاضى الجماعة فقال :

يا أمير المؤمنين ان لنا ولكم مثلا قد مضى وهو ما قال الأعشى .

علقتهـــا عرضا وعلقت رجلا

غيرى وعلق أخرى ذلك الرجل

علقناك يا أمير المؤمنين وعلقت أهل الشام وعلق أهل الشام عبد الملك بن مروان فماذا عسينا أن نصنع ؟ .

وضاق مصعب بأخيه صدرا فاختلى به وجعل يلومه ويعنفـــه على ما صنع بوفد العـــراق وقال له : انك لن توفق أبدا . أجيئك بوجـــوه أهـــل العراق ونخبتهم لتكرمهم فيكونوا قوة لك فاذا أنت تهينهم وتمنعهم من عطـــــائك . ما هكذا يا أخى تكون السياسة وما هكذا تحفظ الخلافة .

فقال له عبد الله :

ويلك يا ابن أخت بنى كلب أتريـــد أن تفتننى عن دينى لأفرق مال الله بددا فى هؤلاء وما فيهم الا غنى عنه وليس بينهم فقير يستحق العطاء ولا مسكين . بئست الخلافة اذن ان كنت لا أحفظها الا بشراء الذمم كما يفعل آل مروان ! .

ـ اذن فلن تبقى لك أبدا .

ـ اذن فلا كانت ! .

ـ عـــلام اذن تفرق كلمة المسلمين وتجعل لهم خليفتين خليفـــة فى مكة وخليفة فى الشام ؟ .

ـ ويلك انمـــا أردت أن أحملهم على المحجة البيضاء وانقذهم من طمع آل مروان وتكاثرهم وفسادهم .

ـ فانك لن تصل الى ذلك بكزازة اليد والعطاء المصرد .

ـ هلم يا مصعب لقد أردت أن احاسبك أنت فاذا أنت تحاسبنى ! .

ـ فى أى شىء تريد أن تحاسبنى ؟ ألم أقض لك على المختار بن ابى عبيد ؟ ألم اوطد لك حكم العراقين ؟ ألم أجمع حولك الأنصار ؟ .

ـ ولكن ماذا فعلت بمال الله الذى جعله فى يدك ؟ ألم تمهر كلا من سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة خمسمائة الف درهم ؟ ألم تعط لعلى بن الحسين الذى حمل اليك أخته من المدينة الى البصرة أربعين الف دينار ؟ .

ـ هذا خويصة أمرى فلا شأن لك به وما أمهرتهما من مال الله كما تزعم بل من صلب مالى . أولا تذكر حين اجتمعنا عند الحجر الأسود من قديم فتمنى كل واحد منا أمنية ، وقد تمنيت انت الخلافة فأعطيتها ، وتمنيت انا ان املك العراقين وان أجمع بين سكينة وعائشة فأعطيت ما تمنيت فماذا يضيرك من ذلك ؟ .

وادرك مصعبا وقت الحج فلما وقف بعرفات لقيه رجل وسيم الهيئة فنظر اليه مليا فسأله مصعب :

ما خطبك ؟ .

ـ لا شىء غير انى نظرت اليك فقلت فى نفسى هذا فتى أكره أن تراه بثينة !

ـ أنت جميل بن معمر ؟ .

ـ نعم . وانت مصعب بن الزبير . وددت لو رزقنى الله مثل وجهك هذا بما طلعت عليه الشمس .

فتبسم مصعب وقال : ماذا كنت تصنع به يا جميل بن معمر ؟ .

ـ افتن به قلب بثينة واشغفه حبا.

ـ فضحك مصعب حتى بدت نواجذه ثم قال : ـ

انك تحسدنى على وجهى وانا أحسدك على شعرك .

ـ ماذا تصنع بالشعر وعندك ما يغنيك عنه ؟ .

ـ أستعطف به قلوب الهواجر ! .

ـ وهل لك من هواجر يا مصعب ؟ وقد جمع الله لك بين أجمل نساء العرب ؟ .

ـ لو تعلم يا ابن عمى ما القى من مغاضباتهن ما قلت الذى قلت .

ـ انما يصنعن ذلك دلالا ، لا قلى ولا ملالا ، ولن يغنى عنك الشعر فى ذلك شيئا ، وشتان يا مصعب بين هجر الدلال وهجر القلى والملال .

ـ أو تشكو بعد من بثينتك ؟ ألم يرق قلبها لك بعد ؟ .

ـ لو قد رق لى قلبها ما تمنيت لى وجها كوجهك ؟ .

ـ هل لك فى أن القاها فاكون شفيعا لك عندها .

ـ كلا كلا . يا رجل . ضل من جعلك شفيعه الى امرأة .

وتولى جميل عنه مسرعا ومصعب يضحك .

وكان مصعب ذات يوم بالبيت فلما انتهى الى الحجر الأسود هاجته الذكرى فوقف هنيهة يسترجع ما كان فى اول شبابه حين اجتمع عند الحجر الأسود مع جماعة فيهم أخواه عروة بن الزبير وعبد الله بن الزبير وفيهم عبد الله بن عمر وعبد الملك بن مروان فقالوا ليقم كل واحد منكم وليسأل الله حاجة ، وكيف أن الله قد اعطى كل واحد منهم ما تمناه .

واشتاق أن يرى أولئك النفر فذهب الى عبد الله بن عمر ليذاكره بذلك . فلما لقيه أعرض عنه ابن عمر وجعل يلومه على ما فعل بأصحاب المختار كيف قتل فى يوم واحد ثلاثة آلاف رجل فأخذ مصعب يعتذر ويقول : انهم فسقوا اذ اعتقدوا أن صاحبهم يوحى اليه .

قال عبد الله : هلا استتبتهم أولا فمن لم يتب منهم قتلته ؟ .

ـ ما كانوا ليتوبوا ابدا .

ـ الم يعرضوا عليك ان يقاتلوا معك؟ . . افلا يدل ذلك على أنهم ترجى توبتهم ؟

ـ لقد اردت أن اقبلهم لولا أن أصحابى من وجوه أهل العراق عارضوا فى ذلك وقالوا اخترنا أو اخترهم .

ـ ما أخالهم الا نظروا فى ذلك لصالح عبد الملك بن مروان خشية أن تقاتله بهؤلاء .

وذعر مصعب لهذه الكلمة التى أرسلها عبد الله بن عمر ارسالا دون تدبر ولا روية ، ولكنها أثارت فى قلب مصعب شجنا كامنا . فقد كان يحس فى أعماق نفسه أن لاشفاقه من قتال عبد الملك ، ورغبته الخفية فى توقيه جهد ما يستطيع أثرا فى موقفه من أصحاب المختار ، اذ الحوا عليه الحاحا شديدا فى أن يبقى عليهم ليقاتلوا معه عبد الملك بن مروان ، فكأنه أراد التخلص منهم حتى لا يحملوه حملا على ما لا يريد .

ولكنه لم يشأ أن يعترف بهذه الحقيقة التى يكتمها عن الناس جميعا ولم يكاشف بها غير صديقه الأحنف بن قيس . ترى ماذا يكون موقف أخيه منه لو علم ؟ .

وكان قد سمع من الأحنف بن قيس مثل هذا الاتهام الذى سمعه من عبد الله ابن عمر اذ قال له الأحنف يوم مذبحة أصحاب المختار : الا يجوز يا مصعب ان لعبد الملك بن مروان يدا فى تحريض أصحابك هؤلاء على المطالبة بقتل أصحاب المختار لما علم من تحمسهم لقتاله ؟.

ولكن لم يكن لمقالة الأحنف اذ ذاك فى نفسه مثل الأثر الذى تركته مقالة عبد الله بن عمر اليوم فقد خشى أن يشيع هذا الظن فى الناس فيبلغ أخاه عبد الله بن الزبير .

وصاح مصعب مجيبا عبد الله بن عمر :

ماذا تقول يا ابن عمر ؟ أتشك فى نية أصحابى واخلاصهم ؟ او تتهمهم بالعمل لصالح عبد الملك بن مروان ؟ .

ـ انا لا اتهم احـدا ، ولكن ان كان لاحد صالح فى قتل هؤلاء فهو عبد الملك ابن مروان .

ـ انما الح اصحابى فى قتل هؤلاء لأن هؤلاء قتلوا وجرحوا كثيراً من اولادهم وعشائرهم .

ـ انى لا الومهم بل الومـك انت . ويحك خبرنى يا مصعب لو ان رجلا اتى ماشـية الزبير فذبح منها ثلاثة آلاف راس فى غـداة واحـدة الست تعده مسرفا ؟ .

ـ بلى .

ـ أفتراه اسرافا فى البهـائم ولا تراه اسرافا فيمن ترجو توبتهم ؟ .

فتأثر مصعب ممـا سـمع ووقف مكتئبا لا يحير جوابا .

فانصرف عنه عبد الله بن عمر وهو يقول :

ـ يا ابن أخى اصب من المـاء البارد ما استطعت فى دنياك .

فكان لهذه الكلمة الأخيرة اثر عميق فى نفس مصعب لا تمحوه الأيام ، فقد ظل يذكرها طول حيـاته وكلما فـكر فى معناها اقشعر بدنه وتقطع قلبـه ندما وخشية .

* * *

لم يخف مصعب على اخيه عبد الله استياءه منه لما اساء استقبال وفـد العراق ، ولما اغلظ له الحديث فى امر سكينة وعائشـة ، فلم يشأ ان يكثر التردد عليـه أثناء اقامته بمكة فكان لا يزوره الا نادرا .

ولما عزم على الرجوع الى العراق خطر له أن يرحل من مكة دون أن يسلم على أخيه أو يودعه حتى يكون ذلك بمثابة الاحتجاج عليه . ولكنه عاد فرأى أن فى ذلك افتئاتا على حق أخيه الخليفة ، وخشى أن يتخذ أحد بطانته من ذلك سببا لا يغار صدره عليه وتصويره بصورة من يريد الخروج عن طاعته .

وحين حضر لتوديعه جلس معه طويلا فذاكره عبد الله فى امر عبد الملك ابن مروان ووجوب معاجلته بالحرب ، فوعده مصعب خيرا وقال له انى راجع الى العراق لأدبر فيها الأمور واهيىء فيها الأسباب حتى اذا اطمأننت الى استقامة الأحوال بها مضيت بجيشى اليه وكتبت اليك لتعززنى بجيش من عندك يلقانى فى الطريق .

قال عبد الله : اخشى يا مصعب أن تنسيك الدعة فى العراق ما تعدنى به اليوم فاجابه مصعب فى شىء من الحدة :

يا أخى لم لا تحسن رأيك فى ؟ ان الدعة لا تشغلنى عن مهام الأمور .

ـ هذا قول تقوله يا مصعب واخشى أن يكذبه ما يبلغنى من عملك .

وكان مصعب يخشى أن يكون قد بلغ عبد الله شىء عن ضعف نيته فى قتال عبد الملك لما بينهما من الصداقة القديمة ، ولكنه لما ذكر الدعة ادرك يقينا أن اخاه لا يدرى عن هذه الحقيقة شيئا فاطمأنت نفسه وانشرح صدره ، وان اظهر الحدة فى رده عليه حينما اتهمه بحب الدعة .

ولم يكد مصعب يصل الى الكوفة ويستقر بها اياما حتى انتهى اليه أن اخاه قد عزله من ولاية البصرة ، وولى مكانه عليها ابنه حمزة ، فغضب مصعب غضبا شديدا ، ولم يقلل من غضبه ان عبد الله كتب اليه فى الاعتذار عن ذلك بانه اراد أن يفرغه هو للاستعداد لقتال عبد الملك حتى لا يشغله عنه شىء ، وان من الخير أن يكون على البصرة رجل من آل الزبير أثناء سير مصعب الى الشام لمنازلة عدوه .

واجتمع بالأحنف بن قيس وابراهيم ابن الأشتر وغيرهما من كبار أصحابه فتذاكر معهم سوء سياسة أخيه وبخله واستبداده بالرأى . واستشارهم فيما ينبغى عليه أن يفعل .

فاشار عليه اكثرهم بألا يخضع لأمر اخيه ولا يعترف لحمزة بولاية البصرة وان يكتب الى نائبه بها أن يستمر فى حكمها بالنيابة عنه ولا يمكن حمزة من شىء حتى يضيق صدره فيلحق بابيه راجعا الى مكة .

ولكن الأحنف بن قيس خالفهم فى هذا الرأى بشدة وقال لمصعب :

انك ان فعلت ذلك اعلنت للناس انك على خلاف مع اخيك امير المؤمنين ولن يستقيم لك ولا له أمر بعد ذلك .

ـ فماذا اصنع يا ابا بحر ؟ .

ـ فاطرق الأحنف مليا ثم قال له :
ـ ماذا ترى فى ابن أخيـــك حمزة هذا ؟ .

ـ شاب اخرق أحمق لا يحسن أن يسوس بيته .

ـ فاتركه اذن يحكم البصرة برهـة حتى يظهر فساد سياسته وعجزه عن القيام باعباء الولاية فسيضطره اخوك حينئـذ الى عزله ويعيـــد الولاية اليك .

ـ واذا لم يفعل ؟

ـ كلا يا مصعب لا تمض فى ســـوء الظن باخيك عبد الله الى ابعد ممـــا ينبغى لك ، فمهما يسغ لنا ان نقول فيه فلا ينبغى ان ننسى انه شديد فى الحق على نفسه وعلى أقرب الناس اليه .

فقال مصعب : صدقت يا أبا بحر ان عبد الله لكما وصفت وهذا ما حيرنى فى أمره كيف يحاســبنى على النقير والقطمير ثم يولى ابنه هذا الاخرق على البصرة ؟

ولما انصرف أصـحابه من عنده ولم يبق الا الأحنف قال له :

ـ ويحك يا مصعب ما كان ينبغى ان تعلن هـذا على ملأ من النـاس فانك لا تأمن أن يكون فيهم من يكتب الى اخيك عبد الله بما يسمع منك .

فقال مصعب : ليبلغـــه ذلك فانى لا ابالى .

ـ كلا يا مصـعب ما يكون لك ان تصعب الأمور على نفسك وان الكياسة ملاك السياسة .

قال له مصعب : اعلى ان انتظر حتى يثبت عجز حمزة وفساد سياسته لغير شىء الا ان أوافق اخى عبد الله على استبداده ؟

قال الأحنف : ويحك اى شىء يعجلك؟ انك لست حريصا على قتال عبد الملك ابن مروان . وهذا ضعف فيك فماذا يضيرك أن تجـــد فى عزلك عن البصرة وتوليتها لحمزة ما تعتذر به الى أخيك عن التعجيل بالمسير الى الشام خشية أن تضطرب أمور العراق فى غيبتك ؟ .

فاستراح مصعب لهـذه الكلمات اذ أصابت هوى فى نفسه فقد كان لا يكره شيئا فى الحياة ما يكره أن يضطر الى محاربة ذلك الصديق الحميم .

* * *

طرأ على مصعب تغير شديد فى مزاجه وسلوكه ونظرته الى الحياة منذ عودته من الحجاز . فلم يعد ذلك المرح البسام الذى يأخـــذ الحياة أخـــذا لينـا ، ويستقبلها بصدر منشرح ، ويستمتع بها استمتاع من لا يفكر الا فى يومه ولا يبالى بغده .

وأخذت الهموم تساور قلبه فتكدر عليه يومه وتؤرق ليله أحيانا وتضطره للتفكير فى المستقبل فيجده كالحا لا يبشر وجهه بخير ولا يفتر ثغره عن أمل . أين تلك الثقة التى كانت تفيض بها نفسه ؟ وأين تلك الآمال التى كان يجيش بهـا صدره ؟ لقد قضى على كل ذلك ما لقيه

به أخوه عبد الله حين قدم عليه فى عاصمة ملكه .

لقد كان يعلم أن أخاه مقبوض اليد ، ولكنه لم يخطر بباله قط وهو قادم عليه بعد ذلك النصر الكبير الذى أحرزه على عدوه اللدود المختار بن أبى عبيد أن تبلغ بأخيه كزازة اليد بحيث يمنع عطاءه عن تلك النخبة المختارة من وفد العراق الذين قدم بهم عليه مزهوا بهم مؤملا أن يلقوا من أخيه امير المؤمنين ما يكافىء بعض ما قدموا من نصرة له ، وبعض ما أظهروا من اخلاص فى سبيله ، حتى يبيض وجهه هو أمامهم فيستطيع فى المستقبل أن يثق باستمرار ولائهم له وعدم انصراف قلوبهم عنه الى أعدائه .

لقد رجع من الحجاز وهو يشعر بالخزى والهوان مما فعله اخوه عبد الله بوجوه أهل العراق اذ لم يكتف بمنع العطاء عنهم بل أهانهم جهارا ونكد بهم على تلك الصورة المنكرة حيث وازن بينهم وبين أهل الشام فود لو أن له بكل عشرة منهم رجلا واحدا من أهل الشام صرف الدينار بالدرهم .

أجل انه قد أجزل لهم العطاء عقب عودته من العراق ليعوضهم عما فاتهم من عطاء أخيه ، وبالغ فى التحبب اليهم والتقرب الى قلوبهم ، ولعله قد نجح فى استبقاء مودتهم له . ولكن كيف يزيل عنهم أثر الاهانة التى مستهم من أخيه وكيف يستعيد له بعدها ولاءهم واخلاصهم ؟ وان فرقا كبيرا بين أن يخلصوا له هو وبين أن يخلصوا للقضية العامة التى يعمل لها ويجاهد فى سبيلها أخوه أمير المؤمنين .

انهم لن يوازنوا بينه وبين عبد الملك ابن مروان فما هو الا امير تابع لأخيه عبد الله ، ولكنهم سيوازنون حتما بين عبد الله بن الزبير الخليفة بالحجاز وبين عبد الملك بن مروان الخليفة بالشام فمن ذا يستطيع ان يلومهم اذا مالت نفوسهم الى عبد الملك ؟ .

وها هو ذا أخوه عبد الله يعزله عن ولاية البصرة كأنما يريد أن يؤكد لهؤلاء العراقيين أن ليس لأخيه مصعب شىء من الأمر ، وكأنما يقول لهم بلسان حاله : ويلكم لا تغتروا بصاحبكم مصعب فانى أنا الحاكم من ورائه ومرجع الأمر كله الى .

انه هو الكريم بالطبع والنحيزة لأشد الناس ضيقا بما جبل عليه أخوه عبد الله من البخل ، وأعمقهم احساسا بالألم والمرارة من جرائه وبالحياء منه والخجل كذلك .

وانه ليعتذر عنه لبعض من يجلسون اليه من غير خاصة أصحابه ، فيزعم لهم أن مرجع ذلك من أخيه عبد الله الى فرط تقواه وشدة محاسبته لنفسه وحرصه على ما استحفظه الله عليه من مال المسلمين أن يصرف فى غير ما أمر الله به ان يصرف من وجوه الخير والبر ،

ولكنه لا يؤمن بذلك فى قرارة نفسه ولا يعزوه الا الى رذيلة البخل وهى أبغض الخلال جميعا اليه .

وتتسلسل الهموم آخذا بعضها برقاب بعض فيذكر أولئك الثلاثة الآلاف من أصحاب المختار الذين تركهم يذبحون فى يوم واحد بعد ما توسلوا اليه أن يبقى عليهم ليقاتلوا معه آل مروان أعداءهم وأعداءه وكان فى وسعه أن يحول دون ذلك لو وقف موقف الحزم من أشياعه الكوفيين .

ويتذكر تلك الكلمة التى حصبه بها الرجل الصالح عبد الله بن عمر حين لقيه بمكة فلم يزل دويها فى سمعه وقلبه : يا ابن اخى أصب من الماء البارد ما استطعت فى دنياك .

ويتذكر امرأة المختار ابنة النعمان ابن بشير صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم التى قتلها أصحابه غدرا وهى فى طريقها بين الكوفة والحيرة فعيره بذلك الشاعر عمر بن أبى ربيعة فى ابياته التى جرت على أفواه الناس فى كل مكان .

لقد احتمل قبلا كل ما احتمل من ذلك من أجل أخيه عبد الله أمير المؤمنين وفى سبيل القضية العادلة التى ينافح عنها لخير المسلمين ، والتى كان يطمع أن تنتصر فى المستقبل القريب .

اما اليوم وقد أوشك أن ييأس من مستقبلها فعلام احتمل كل ما احتمل ؟ وعلام استباح فى سبيلها ما لم يقره ضميره ولم تسوغه له مروءته ؟ .

ثم ان من أشد ما يؤلم نفسه ان العدو المطالب هو بقتاله لم يكن غير صديقه القديم الحميم عبد الملك بن مروان .

لقد استطاع زمنا أن يتقى الاشتباك معه فى حرب بما كان يشغله هو من قتال المختار بن أبى عبيد ، وبما كان يشغل عبد الملك من قتال الروم والخوارج ،

فاى عذر بقى له اليوم بعد ما قضى على المختار بن أبى عبيد وفرغ منه ؟ وان أخاه عبد الله ليحثه على المسير الى الشام لمنازلة عبد الملك ، وانه ليزعم له أنه ما عزله عن امارة البصرة وجعلها لابنه حمزة الا ليتفرغ مصعب لهذه المهمة الكبرى .

وانه ليعلم ان هذا عذر اقبح من

الذنب ولكن لماذا لا يتخذه سببا لتسويف المسير الى الشام كما نبهه الى ذلك الأحنف بن قيس ؟ فى وسعه الآن أن يكتب الى اخيه عبد الله بانه لا يستطيع أن يغادر العراق ويتوجه صوب الشام لمنازلة عبد الملك الا بعد ان يثبت حمزة انه قادر على ضبط الاحوال وتصريف الامور فى ولايته ويومئذ يطمئن هو فيسير .

والى أن يتم ذلك قد تجد امور وامور ليس من المستطاع التكهن بها اليوم .

* * *

ولم يطل بمصعب الانتظار فان حمزة ابن اخيه عبد الله لم يلبث ان ظهر عجزه عن حكم البصرة وسوء سياسته فى اهلها فضاقوا به وتذمروا من وجوده بينهم ، وأخذوا يستخفون بأمره ، ويستهينون بشأنه ، ويتندرون عليه فيغضب هو منهم ويشتط فى معاملتهم فلا يزيدهم ذلك الا نفورا منه واغراء به .

ولم يسع الاحنف بن قيس عندئذ الا أن يكتب الى عبد الله بن الزبير يطالبه بعزل حمزة عن ولاية البصرة واعادتها الى مصعب كما كانت ويقول له : ان عبد الملك قد فرغ من منافسة عمرو ابن سعيد الأشدق اذ قتله غدرا وانه خليق الآن أن يستعد لغزو العراق .

واستجاب عبد الله بن الزبير لكتاب الأحنف فعزل ابنه حمزة ، وأعاد ولاية البصرة الى مصعب ، وأوصاه بالتوجه لمناجزة عبد الملك فكان ذلك يوما مشهودا اذ رجع مصعب الى البصرة ليصلح بها ما أفسده ابن اخيه وليرتب فيها الأمور استعدادا لما ليس منه بد من التوجه الى الشام لتنفيذ ما أمره به أخوه عبد الله .

وأخذ معه نساءه الاربع فاعادهن الى دورهن بالبصرة ، وكأنما احس انه يقيم بها هذه المرة مقام مودع ، وانه لن يلبث أن يغادرها لغير رجعة ، فاطلق لنفسه العنان فى الاستمتاع بأقصى ما يمكنه من مباهج الحياة فى هذه المدينة الوادعة ذات الزروع وذات النخيل وذات الشط الذى تتمايل فيه السفن والقوارب غادية رائحة .

آه ما أجمل الحياة فى ظل السلام حيث لا حرب ولا خصام .

اللهم الا تلك الخصومات اللديدة العذبة التى تنشب بينه وبين نسائه الجميلات اللائى يتنافسن عليه أيهن تكون لها الحظوة الأولى عنده والمقام الأول فى قلبه .

وقد أتيح لهن فى هذه المدينة من فراغه ودعته ما لم يتح لهن فى الكوفة ، فأمعن فى التحبب اليه والتدلل عليه فى أساليب مختلفة لكل واحدة منهن أسلوبها الذى تجيده .

ولقد كان يشقى بهن وبما يصدر عنهن من منافسات ومكايدات تدور حوله كأنما هو كرة تتلاعب بها الصوالج ولكنه كان يجد لذلك لذة لا تعدلها لذة فى الحياة .

كان يلذ له الهجر كما يلذ له الوصل

ويعجبه العتب الجميل كما تعجبه الشكوى الرقيقة ، وتطيب له المغاضبة كما تطيب له المراضاة وانها لامور محببة اليه اذ يجد فيها مجالا لقلبه أن يتوثب ويتعذب ويشتكى ويستعتب ، ويتقلب بين حلاوة الوصل ومرارة الهجران .

ولقد اجتمع له من أجمل نساء العرب فى عصره ما كانت تكفى واحدة منهن ليقصر عليها بعلها قلبه ، ولكن قلب مصعب الكبير يتسع لهن جميعا وتبقى فيه بعد زوايا خالية تود لو أن الشرع اباح له أن يشغلها بنسوة أخر .

وكان أشد ما يلقى من ذلك ما يلقى من عائشة بنت طلحة فقدكانت أشرسهن عليه وأكثرهن نشوزا ودلا وتعذيبا .

انه لا يعرف من اين يأتى رضاها ولا من اين يأتى سخطها ، فقديعمل شيئا يريد به رضاها فاذا هى تغضب منه ، وقد يأتى امرا يحاول به أن يغضبها فاذا هى ترضى عنه وتشكره عليه .

ولن ينسى أبدا كيف عرضت عليه ذات يوم ثمانى لؤلؤات لم ير الناس أكبر منها حجما قط ولا أجمل بريقا فاشتراها بعشرين ألف دينار فانطلق بها فرحا الى دار عائشة ليقدمها هدية اليها ، وكان يعرف غرامها باللؤلؤ الأصيل وحرصها على الاستكثار منه وتدقيقها فى اختياره ، فلما دخل عليها عند الضحى وجدها نائمة فلم يستطع من فرط سروره بما يحمل لها أن ينتظر حتى تستيقظ من تلقاء نفسها فايقظها ونثر اللؤلؤ فى حجرها وهو يقول :

ـ جئتك يا عائش بلؤلؤ لا يصلح لغير جيدك وليس عندك مثله .

فما راعه الا أن نظرت الى اللؤلؤ بغير اهتمام ثم قالت وهى تتثاءب .

ـ ويلك يا مصعب أمن أجل هذا توقظنى من نومتى ؟ والله ان نومتى كانت احب الى من هذا اللؤلؤ !

وعادت الى نومها وهى تومىء له أن اخرج ودعنى أنم وحدى فى سلام .

وكان ربما يدعوها للتنزه معه فى بعض ضواحى المدينة فتقول له :

ويحك ألا تغار على من عيون الناس ؟

فيقول لها : أى شىء يدعونى للغيرة منهم عليك ؟ انا أكبر من ذلك يا عائشة وانت أكرم من ذلك ؟ .

فتثور فى وجهه قائلة : انك لا تحبنى فاذهب عنى ولا تعد الى .

فيحاول أن يسترضيها فلا تقبل له كلاما وتصفق الباب فى وجهه وتبقى اياما مغاضبة له لا تأذن له ولا تكلمه .

وكانت من جانب آخر قلما تحتجب اذ كانت تجلس وتأذن كما يأذن الرجل فاذا عاتبها مصعب فى ذلك قالت له :

ان الله تبارك وتعالى وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلى عليهم فما كنت لأستره ، ووالله ما فى وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد .

فاذا راجعها مصعب فى ذلك اندفعت تقول له :

ـ ويلك ان الغيرة من الضعف وهى لا تجدر بمثلك .

ـ انما أغار عليك حبا يا عائشة ولا أغار عليك ضعفا .

ـ فادع غدا أحد أصحابك ليجلس اليك ويرانى بين يديك .

ـ أو بعد غد .

ـ كلا بل غدا والا فلا .

ـ حبا وكرامة .

قال ذلك وهو يعلم ان غد ذلك اليوم سيكون فى نوبة سكينة بنت الحسين ولكنه لم يشأ أن يتقهقر امام تحديها السافر فوعدها ولا بد له أن يفى بالوعد وليكن ما يكون .

ولم يدرك أنها قصدت ذلك عن عمد لتفسد ما بينه وبين غريمتها سكينة الا بعد ذلك بأيام حين صارحته هى بذلك وهى تضحك من غفلته وسذاجته .

فلما كان الغد حضر مصعب الى دارها ومعه ابو عامر الشعبى، فلما ظعن فى الدار التفت اليه وقال له ادخل فدخل معه ومضى نحو حجرته فتبعه الشعبى فاذا هو بحجلة جميلة مكسوة بالوان الحرير فوقف ينظر اليها مبهوتا متعجبا من حسنها وبهائها ، ودخل مصعب الحجلة واختفى فيها فهم الشعبى أن ينصرف ولكنه تذكر ان مصعبا لم يأمره بالانصراف ، وحدثته نفسه بالجلوس ولكنه خشى أن يغضبه ذلك منه فوقف منتظرا فاذا جارية قد خرجت فقالت :

ـ يا شعبى ان الأمير يأمرك أن تجلس

فجلس الشعبى على وسادة وثيرة غاص فيها حتى أشفق أن يتلفها او يفسدها وظل كذلك برهة لا يدرى ماذا يفعل ولا ماذا يريد مصعب أن يفعل به .

وانه لكذلك اذ رفع سجف الحجلة فاذا هو بمصعب بن الزبير يحييه ويبتسم له فاطمأن قلبه قليلا ثم رفع السجف الآخر من الحجلة فاذا هو بعائشة بنت طلحة قد بدت فى زينتها كأنها الطاووس فاخذت تبتسم له وتحييه فلا يحير جوابا ..

ـ ويحك يا شعبى الا ترد تحيتى باحسن منها ؟

وتلعثم الشعبى وتلجلج وهو يقول :

ـ معذرة يا سيدتى ..

ـ ماذا دهاك ؟ لطالما سمعت عنك انك فصيح المنطق فأين ذهبت فصاحتك ؟ وقهقه مصعب ضاحكا وهو يقول :

ـ دعيه فوالله لو رأيتك أول مرة مثله لأصابنى الذى أصابه .

ثم وجه حديثه الى الشعبى فقال :

ـ هل تعرف هذه يا شعبى ؟

ـ نعم أصلح الله الأمير .

ـ ومن هى ؟

ـ سيدة نساء المسلمين عائشة بنت طلحة .

ـ كلا يا شعبى .

ـ فمن تكون اذن أيها الأمير ؟

ـ هذه ليلى التى يقول فيها الشاعر :

وما زلت من ليلى لدن طرشا ربى
الى اليوم اخفى حبهـــا واد اجن

فحار الشعبى ولم يدر ماذا يقول .

ورنت ضحكة عائشة وهى تقول :

ـ لا تصدق هذا الرجل يا شعبى . فانى أنا حقا عائشة بنت طلحة .

وسكت الشعبى ولم يدر بماذا يجيب

ـ انظر الى يا شـــعبى . الا يسرك ان تنظر الى ؟

ـ اذهب يا شعبى مصاحبا ووافنى العشى بالمسجد .

ولما كان العشى وافاه الشعبى بالمسجد فسلم عليـــه فلما رآه مصعب قال له ادن منى فدنا منه حتى وضع يده على مرافقه فمال اليه فقال :

ـ خبرنى ياشعبى هـــل رأيت مثل ذلك الانسان قط ؟ .

ـ لا والله ما رات عينى مثله قط .

ـ ولن ترى مثله ابدا .. افتدرى لم ادخلناك ؟ .

ـ لا أيها الأمير .

ـ بلى يا سيدة نساء المسلمين

ـ هانتذا قد بدا لسانك ينطلق .. تكلم يا شعبى وحدثنا حديثك .

ـ لو اعفيتنى يا سيدتى فانى والله لا ادرى كيف احدثكما .

ـ فكـركرت عائشـــه ضـاحكة ثم قالت :

ـ أتحب ان تبقى هنا ام تنصرف ؟

ـ بل أنصرف اذا اذنت

ـ استأذن من دعاك .

ـ هل يأذن لى الأمير اصلحه الله ؟

ـ لتحدث الناس بما رأيت

ثم التفت مصعب الى كاتبه فقال له :

أعـط الشـعبى عشرة آلاف درهم وثلاثين ثوبا .

فكان الشعبى يحدث أصحابه بما رأى ويقول لهم : ما انصرف يومئذ أحد بمثل ما انصرفت به : بعشرة آلاف درهم وبمثل كارة القصـار ثيابا وبنظرة من عائشة بنت طلحة .

اما سكينة بنت الحسين فقد كانت تحبه حبا صادقا ولكنها لا تظهر له من حبها الا القليل . وكان هو يحبها حبـــا

جما الا أن تعلقها بالسياسة ، والحاحها عليه بمعاجلة عبد الملك بن مروان كلما لقيته دون انقطاع ، وغرامها بالتنديد بسياسة أخيه عبد الله وقدحها فيه قد أقام بينه وبينها شيئا كالستار الرقيق يحول دون استمتاعه بحبها على الوجه الذى يرضيه .

ولما عاد من الحجاز ساخطا على أخيه أخذت تلومه وتعنفه ولا سيما بعد ما عزله أخوه عن ولاية البصرة فكانت تقول له :

ـ لو عملت بمشورتى ورأيى ما انتهيت الى هذا الحال .

تشير بذلك الى ما كان من تحريضها اياه من قبل على الاستقلال بالعراق عن أخيه . فقد كانت ترى دائما أن مصعبا أحق من عبد الله بن الزبير بولاية هذا الأمر لا لأنه افضل منه أو اتقى منه بل لأنه أجدر أن يجمع قلوب الناس حوله بما يمتاز به من الخلال التى تحببهم فيه مما ليس عند عبد الله الا نقائضها التى تغض الناس من حوله .

وكانت تشفق أن ترجح كفة عبد الملك ابن مروان اذا بقى مصعب يعمل باسم أخيه ، فشتان بين من يشترى قلوب الأنصار والأتباع بالمال والجاه وبين من يبيعها بالشدة والصرامة ومنع العطاء .

كانت ترى مصعبا كفاء عبد الملك ، ان يفضله عبد الملك بدهائه ومكره فان مصعبا يفضله بفروسيته وشجاعته وكرمه وبجماله الذى يفتن الأبصار .

ولكن ماذا يجدى كل ذلك على مصعب ان كان يعمل من أجل أخيه الذى يهدم كل ما يبنيه ؟ .

انها لا تجهل مكانة عبد الله بن الزبير ، ولا تنكر تقواه وزهـــده وصرامته فى الحق ، وحرصه على اتباع النهج الذى سار فيه أمثال عمر بن الخطاب وعلى ابن أبى طالب من قبله على ما فيه من شوائب تقعد به عن اللحاق بهم .

ولكنها ترى أن الزمان قد تغير عما كان . وان الطراز الذى كان يصلح فى ايام عمر بن الخطاب لم يعد يصلح حتى لأيام جـــدها على بن أبى طالب بعد ما اندلعت نيران الفتنـــة فى أيام عثمان ابن عفان فذهب هو وقودها ، وتوالت الفتن كقطع الليل المظلم فقلبت موازين الأشياء ،فنجح من كان ينبغى أن يخفق واخفق من كان ينبغى ان ينجح . ومن ذا ينسى ما كان بين الأمام على ومعاوية ثم ما كان بين ابيهـــا الحسين ويزيد ابن معاوية .

لقـد اخفق على وهو أفضل الناس واتقاهم ، ونجح معاوية وظفر بالخلافة وهو لا يساوى قلامة ظفر على . ولقى ابوها الحسين مصرعه حـين ثار على يزيد بن معاوية وشتان بين الحسين وبين يزيد .

فماذا يكون عبـــد الله بن الزبير اذا قيس بهؤلاء وكيف يتاح له النجاح من حيث اخفق من هم افضـل واثبت فى هذا النهج الذى ساروا عليه ، ومن له بمهابة على فى صدور الناس أو بالحب الذى كانوا يضمرونه للحسين ؟

أما مصعب فانه من الطـــراز الذى يصلح لولاية الناس فى هذا الزمان ففيه جميع الصـــفات التى تحببهم فيـــه وتجمعهم عليه ، وتعينه على بلوغ الغاية ولا يعوزه الا شىء واحد هو الاستقلال بأمره عن اخيه .

ولقد ازداد أملها فى أن يقتنع برأيها هذا حينما عزل عن البصرة واسندت ولايتها لحمزة بن عبد الله بن الزبير ، اذ كان مصعب فى حالة سخط شديد على اخيـه ولـكن ذلك لم يدم طويلا اذ ما لبث ان أعيـــد الى ولاية البصرة فقضى ذلك على أملها فى اقناعه بالانصياع لما تريد .

على أنها لم تيأس كل اليـــاس من تحقيق الحلم الذى يراودها على وجـه من الوجـــوه ـ ذلك الحلم الذى بدأ يطوف براســـها منذ تزوجت مصعب ابن الزبير فوجـــدت فيه من خـلال الشجاعة والكرم والمروءة ما أغراها أن تطمع فى أمر لو تحقق كان فيـه شفاء نفسها ونفوس شيعتها جميعا من الثأر لجدها ولأبيها وغيرهما من أهل بيتهـا النبوى الـكريم من ذلك البيت الـذى ناصبهم العـــداء وانتزع منهم الخلافة واذاقهم صنوف العذاب والويل : بيت آل مروان .